علي حسين العبادي

الكتاب والثقافة القومية

يشكل الكتاب العامل الرئيس في التوعية القومية والسياسية لمكانته ودوره في مضمار الحضارة والمعرفة الانسانية ، وكونه رابطة من اقوى الروابط الفكرية التي تجمع شمل الامة وتنقل انتاجها الفكري بالاضافة الى انه المرآة التي نرى العالم من خلالها .

والحقيقة ان العرب رعوا الكتاب منذ زمن بعيد وهو امر تؤكده مجموعات الكتب النادرة التي امتلأت بها خزانات الكتب العربية من المحيط الى الخليج ، ويحتفظ عدد من دور النشر والمكتبات العالمية حاليا باعداد كبيرة منها وهي ثروة علمية ومكتبية لا تقدر بثمن ، وشاهد حضاري على تقدم العلوم عند العرب ، ومدى اهتمامهم بالمعرفة قبل ان تخترع الطباعة وتذلل الصعوبات ، وكانت الكتابة تلعب دورا بارزا في تطوير الحضارة العربية وتناقلها من جيل لجيل ومن بلد لاخر ، حتى غدت ذات اتساع عالمي بفضل العلوم المكتبية التي نشرها الرواد الاوائل للحركة الفكرية العربية ..

ان الوقوف امام هذه الحقيقة غايته الاولى ان نعيد قراءة تاريخنا وان نتذكر مستوى نهضتنا واثارها العلمية على الانسانية جمعاء ، وكمقدمة لاستقراء الواقع الثقافي الحالي بالمقارنة معه ، ثم معرفة مدى مقدرة الثقافة الحالية على مجابهة الفكر المعادي باتجاهاته الاقليمية والشعوبية من جهة ، ومقارعة الفكر الامبريالي والصهيوني من جهة اخرى ، ثم العمل على ايجاد الوسائل والمقترحات الضرورية للارتقاء بمستوى هذا السلاح الاساسي من حيث نشره داخل الوطن وربطه بالتراث القومي للامة والانسانية في العالم ، ووضع الوسائل والاساليب العلمية من اجل ترابط وتزاوج الفكر العربي الحديث وعصرنة هذا الفكر وتعميم واشاعة الثقافة لكل الناس ، وذلك من خلال الاسهام الرسمي العربي المباشر (المادي ، والمعنوي) ابتداء من الغاء الامية وحتى مجانية والزامية التعليم بجميع المراحل بالنسبة للاولى ولبعض المراحل بالنسبة للثانية ، وايجاد تعاون عربي في هذا المجال لان وحدة حركة الفكر القومي تشكل المقدمة الضرورية والاولية للوحدة القومية .

ان هذا التفكير يجعلنا نعي اوليات الطريق في مسالة اعادة احياء التراث القومي والبحث في كنوز الثقافة العربية ، ومتابعة الانجازات الحديثة في مختلف العلوم التكنيكية والانسانية، حتى نستطيع بالفعل مواكبة التطور، والا فان لقاءاتنا ستبقى في آطر المؤتمرات التقليدية، التي لا تعطي القضية الثقافية اكثر من قرارات متحمسة للعروبة والثقافة، وفي بعض الاحيان للنواحي الفنية والتسويقية. وفي تقديرنا ان هذه المسائل مع اهميتها فهي جزء وجيز وبسيط من الموضوعات التي يجب ان تطرح كمشروعات عمل .

في لقاء على هذا المستوى وتحت مثل هذه الشعارات القومية والتقدمية والمعاصرة ، فما هي اذا موضوعاتنا الاساسية التي نراها بمستوى الشعارات القومية والمصيرية للامة العربية ؟.

ان المدخل هو البحث الجاد ، العلمي والعملي ، في موضوع ازمة الكتاب العربي ، وهذا الموضوع يجرنا الى بحث ازمة الثقافة العربية المعاصرة . ومن خلال هذا المدخل يمكن ان نصل معا الى مركزة القضايا وبحث جزئياتها وابعادها وترابطها بموضوعية علمية لا نشك بقدرتنا مع بعض على ايجاد المخارج الصحيحة والعملية في قضية كلنا نشعر انها مهمة ومصيرية ، وانها تشكل اليوم اهم جبهاتنا الكفاحية ، في مرحلة تعتبر فيها الجبهة الثقافية معيارا لتقدم الامم ، ومن خلال مكانتها وقوتها وصلابتها وعلميتها تستطيع مجابهة الاعداء القوميين ، من امبرياليين وصهاينة واعداء عنصريين للعرب والحضارة العربية والمستقبل العربي ..

ان مسالة بهذا الحجم تتطلب بالفعل ان تكون ميدانا اساسيا للبحث في هذه الندوة حتى وان اختلفت العناوين ، الا ان نتائج كل عنوان لابد وان تلتقي في الهدف المركزي الذي نعنيه جميعا في هذه الندوة وفي ندواتنا القادمة . ولاجل ان ندخل واضحين ، لابد ان نبوب الموضوع اعتبارا من مسالة احياء التراث ومرورا بمشاكل الكتاب والمعرفة والاساليب المتبعة في اقطارنا لمجابهة التخلف والشروط التي نطمح لتوفيرها مجتمعين لخدمة الثقافة العربية وتقدم الكتاب العربي في الميادين كافة ، وجعل هذا السفير في العالم والكادر المتقدم في مجتمعنا على مستوى لائق بأمتنا وبالطموح الحضاري والعلمي الذي نريده لها جميعا وما مثلته في الماضي .

اولا ـ مسألة احياء التراث القومي للامة العربية :

ان موضوع احياء التراث يتطلب توفير وسائل عملية وتنسيقا شاملا بين اقطار الامة العربية من خلال الجهات الرسمية المعنية ودور النشر . في مقدمة هذه الوسائل البحث المتواصل عن المخطوطات العربية داخل الوطن وخارجه والعمل على تحقيقها ونشرها بعد تنقيحها والتعليق عليها ، بما يخدم الثقافة .

وفي هذا المجال من المفروض تشكيل هيئة عربية موحدة لجمع المخطوطات واعادة تحقيقها ونشرها ، وفي المقدمة الكتب التي توضح دور العرب التعليمي في طرق ابواب الاجتماع والتاريخ والفلسفة والطب والكيمياء والتراث الادبي . لان تاخر نشرها قد يؤثر على النشر بضياعها او تلفها ..

وفي هذا المجال نتبع منهجا موحدا لترتيب التحقيق في الموضوعات ويوظف جهد غير اعتيادي متعاون بين كل من تعنيه الثقافة العربية واعادة احياء التراث ..

والطريق الثاني لاحياء التراث بغير التحقيق الفردي هو باعادة كتابة التاريخ بمنهج معاصر وعلمي يتناسب والتطورات العلمية الحديثة وبما يخدم الثقافة المعاصرة ، ويؤكد تقدم المعرفة العربية ودورها في الحضارة الانسانية ، واهمية ذلك في تربية جيل الثورة العربية الجديد على ماضي أمته الخالد حتى يصبح جيلا يعتز بذاكرته القومية ويتمسك بثقافة تلتصق بلحم الارض وجسد التاريخ القومي لامته ، ومن خلال هذه التربية يعي تمام الوعي ابعاد الصراع مع الامبرياليين والصهاينة وتترسخ في نفسه مبادىء وقيم جديدة وذات صلة بتراثه ونضال امته ، من اجل الخير والانسانية وتقدم البشرية الحضاري والعلمي . وهذه اهم قضية يمكن ان نقدمها للجيل العربي الذي نريده جيل معرفة وعلم ورسالة ومبادىء حضارية وانسانية نبيلة ..

ثانيا ـ أزمة الكتاب العربي :

ان هذا الموضوع بالحقيقة ، يجرنا الى الموضوع الاساسي الذي يجب ان يكون محور نقاشنا وهو ازمة الثقافة العربية ، وكما قلنا ان جذرها الاساسي هو بداية فقدان الصلة بالتراث الثقافي القومي ، وعدم تكامل نشره وعدم اعادة قراءته وفق منهج معاصر ومتكامل ومنسجم مع التطور العلمي وصراع الامة مع اعدائها ، والشيء الاخر

هو ما تعرضت له الثقافة العربية من استلاب نتيجة الهجمة الاستعمارية وعصور التخلف والانحطاط وما افرزته تلك العصور والحالات على الثقافة القومية حيث نشأت قيم وعادات وتقاليد واعراف ، وبالتالي ثقافات سائدة دخيلة نقرها ونعتز بها وكأنها ثقافتنا وتاريخنا وعاداتنا بينما هي شواهد واوتاد استعمارية لا تمت لتراثنا وتقاليدنا بصلة ، وهي في كل قطر تختلف عن الاخر من حيث المنهج والمضمون رغم اتفاقها على طمس حضارتنا وتزييف اخلاقنا وارباك مسيرتنا ، ولا تجتمع على شيء مثلما تجتمع اليوم على هدم رسالة الامة الوحدوية وقيمها الانسانية واخلاقيتها ومحاولات جرها شيئا فشيئا الى شواطىء غير التي اعتدناها وسار عليها اجدادنا في كفاحهم من اجل الحق والتقدم الانساني .

وبحكم هذه الحالة من الضياع الفكري والتمزق العقيدي نشأت مدارس ومذاهب وقيم معرقلة ومعيقة لحركة الثقافة القومية الاصيلة ومنابعها المتقدمة ، وكان لابد ان ينشأ عن ذلك التمزق حالات ثقافية فيكل قطر حسب واقعه وقدرته على المقاومة من جهة والمدة الزمنية الاستعمارية وطريقة الاستعماريين واساليبهم الثقافية المضللة واهدافهم من وراء ذلك من جهة اخرى . بالاضافة الى الحالات التي تولدت بعد تشكيل الانظمة السياسية المحلية في الاقطار العربية في مرحلة ما بعد الاستقلال ودور هذه الانظمة في وضع اسس للثقافة القطرية ، اكثرها بعيدة عن الثقافة القومية الموحدة ، لا بل ان معظم الاساليب كانت ولا تزال لمنع تزاوج عناصر الثقافة القومية بين الاقطار العربية ، ولذلك نشأت مرة اخرى حالات ضياع وتمزقعقيدي ذي بعد قطري وسياسي واجتماعي واقتصادي ، وهذه اكثر خطورة من اي حالة تعرضت لها الثقافة في اية امة من الامم حيث اصبحت جزءا من تقاليد الانظمة السياسية في الاقطار العربية ، وبذلك فان معارضتها تقع في اطار معارضة النظام السياسي . وان العمل على بناء ثقافة موحدة للامة يعني الغاء الاساس الثقافي للقطرية والاقليمية وبداية شيوع ثقافة الوحدة العربية ، كما ان دخول المبادىء التقدمية والاجتماعية الحديثة ايضا ، لعب دورا في زيادة تمزق الثقافة لاختلاف المناهج ، واصبح الحظر على تنقل الكتاب اشد من اى مرحلة اخرى بالاضافة الى الاجراءات الجمركية والرقابة والنقل والطبع وحركة التوزيع .. الخ من العوامل .

اذن فان الازمة ازمة ثقافة وازمة الثقافة وليدة الاستعمار والتخلف ودخول الافكار والمبادىء الغربية على التراث القومي والمعادية للحضارة وتداخل خطة الثقافة في البناء السياسي والاجتماعي ، بالضرورة طبعا ، وهذا يعطي للانظمة المبررات السياسية والاجرائية لمنع حركة الكتاب وبالتالي وحدة الثقافة خوفا من نتائج الاتجاه التوحيدي والمعاصر للفكر العربي ، لانه لابد وان يحدث تغيرا فيالعلاقات الاجتماعية ويبلور اتجاهات وحدوية في صفوف الجماهير ويكون سدا ضد الافكار المعيقة وكل ما هو معارض للفكر العربي المعاصر والمرتبط بالتراث الاصيل للامة .. اذا كانت كل هذه الاهمية للثقافة في مصير مستقبل الامة ، وتقدمها ، فمن الاجدر ان نجعل لمسالة الكتاب ومستقبل عموم حركة الثقافة والنشر مستوى جديرا بها في ندوتنا هذه التي تبحث في الكتاب العربي من مختلف جوانبه . ذلك اننا لا نرى اى فصل بينه وبين الثقافة القومية المعاصرة والتراثية .. فبالاضافة الى الازمة الفكرية والازمة في اعادة نشر وقراءة التراث هناك مشاكل ومعوقات اخرى جديرة بالبحث ، بل هي جزء من موضوعاتنا هنا لابد ان نتداولها بعمق لنصل الى تحديد الهدف ووضع المؤشرات العلمية ولتجاوز ما يمكن تجاوزه في هذا المجال .

النقطة الثانية : ان ازمة الكتاب لا تزال في جزء منها بسبب الطبع حيث تعاني من التخلف في الوسائل والسرعة رغم دخولالطباعة الحديثة في عدد من الاقطار العربية ، بالاضافة الى القصور الفني في الغلاف والتصحيف والتبويب ونظافة الطبع ودقة الترجمة واعتماد النهج العلمي والبحث ، وفي هذا المجال يمكن ان يتم تنسيق طباعي عربي في الاقطار المتجاورة لتحقيق التكامل الطباعي ولتامين طبع الكتب العربية للاقطار التي تعجز مطابعها عن انجاز المطلوب والعمل على وضع توصيات عملية في هذا المجال ، ومنها الاطلاع على الطباعة ومستواها والتدريب عليها لدى الدول المتقدمة لاهمية ذلك في حل ازمة الطباعة التي يعاني منها الكتاب العربي ..

النقطة الثالثة : وسائل النقل ، اكثر من مرة تم اتخاذ قرار لتسهيل عمليات تداول الكتاب وخاصة في مجال نقل المطبوعات بالجو وتكاليف ذلك وما يجره ارتفاع الاجور على ثمن الكتاب العربي وبالتالي علىعمليات التوزيع والتنقل بين الاقطار العربية .. وهذا يعتبر اكبر عائق لانه يحد من عمليات التصدير والاستيراد ويرفع الاسعار الى مستويات خيالية لا يستطيع المواطن العربي اقتناء الكتاب بسببها، ولهذا فان عمليات الشراء ستكون قليلة مما يؤدي الى حرمان المواطنين من القراءة ، وعرقلة توحيد الثقافة وتزاوجها بين الاقطار العربية ولذلك يجب ان يكون اتجاهنا مكررا لتخفيف اجور النقل الجوي على الكتاب لاهمية ذلك في دعم الكتاب العربي ووحدة الفكر القومي الحديث ، او بايجاد الوسائل الخاصة لتسهيل مهمة النقل وتخفيف اجورها .

٤ ـ الرقابة والاجراءات الجمركية :

نحن لا ندعي ان بالامكان الغاء الرقابة على المطبوعات العربية ولكن نرى جهدا مكثفا يجب ان يبذل في هذا المجال وخاصة على كتب العلوم التكنيكية والانسانية وكتب التراث والفنون والاداب والكتب التي تبحث في تاريخ الامة ورسالتها الحضارية وحركة القومية العربية ومعارك المصير القومية على الاقل كمقدمة لالغاء الرقابة على الكتاب العربي المتداول بين الاقطار العربية ، وكذلك الاجراءات الكمركية على الكتاب التي تضعها بعض الاقطار العربية او على مصادر الكتب كالورق والحبر الى اخره .

* * *

الكتاب في ظل ثورة ١٧ تموز في القطر العراقي

منذ ان بدأت الثورة بتصحيح المسيرة الثقافية في القطر تبعت نهجا قوميا وتقدميا في مجال الثقافة ، وهذا النهج استهدف ارساء تقاليد ثقافية ذات بعد قومي وحضاري يهدف الى تقنين حركة الثقافة وفق الاتجاه القومي والانساني التقدمي .. اي بابعاد الافكار والمبادىء التى تعيق حركة تقدم الرسالة العربية الجديدة التي تهدف اليها الثورة ، وفي هذا المجال اعتمدت صيغ جديدة لاعادة صياغة الفكر العربي في العراق ، وهذه الصيغ تبدأ من اشاعة المعرفة وفق المنطلقات القومية والانسانية وتمتد اكثر الى الغاء اسباب التخلف وبناء اسس ثقافية ضرورية لنهضة العراق ولتدعيم نهضة الامة بشكل كامل ..

وفي هذا المجال اتخذت الثورة الخطوات التالية :

اولا : في مجال المؤسسات المسؤولة عن النشر والتوزيع :

اسست الدار الوطنية للنشر والتوزيع والاعلان لتقوم بمهمة دعم حركة التوزيع وتعضيد المؤلفين والاشراف على عملية عرض ونشر الكتاب العراقي وجلب الكتاب العربي للقطر ، كذلك الكتاب العلمي العالمي ، فقد سارت في هذا المجال بخطوات ملموسة لها أثر كبير على الشارع الثقافي في العراق وذات علاقة واسعة ومتطورة مع الاقطار العربية تمكنت بواسطتها من جلب أكثر من مليونين ونصف مليونسخة خلال عامين فقط ، وصدرت ما يقارب الربع مليون نسخة من الكتب العراقية للاقطار ، تونس ، المغرب ، الجزائر ، مصر ، الخليجالعربي، لبنان ، سوريا ، الاردن ، واسهمت في وضع أسس سليمة لتزويد الكتاب وتصديره تتناسب ومكانته الثقافية والعلمية والحضارية ، وقد روجت للكتاب بعشرات المعارض المحلية واشتركت بمعظم المعارض العربية والعالمية وهي تعمل جادة على دراسة سوق الكتاب بآفاق متحضرة وجديدة ، وقد وقعت جملة من الاتفاقيات مع دور النشر العربية وهي مستعدة لتطوير علاقاتها بما يضمن تداول الكتاب العربي وتيسير وصوله الى القطر وايصال الكتاب العراقي الى كل طالبيه في الوطن العربي ، والاتجاه الاخير لدى الدولة والثورة هو حصر استيراد الكتاب بالدار الوطنية وكذلك تصديره لضمان سلامة خط التوزيع والاستيراد ولاخراج الكتاب من اطار المتاجرة الرخيصة التي يتعرضلها،

وتعمل في ذات الوقت على تخفيض اسعار الكتب العراقية والعربية لاشاعة الثقافة ودعم حركة التاليف والنشر وتقدم المكتبات ، وهي في هذا المجال بصدد تنظيم المكتبات التجارية والاشراف عليها ومراقبتها حتى تستطيع تحويلها الى دور معرفة واطر صالحة لخدمة المجتمع والثقافة القومية التقدمية اجتماعيا وانسانيا ، وللحد من اساليب التزوير والتلاعب بالكتاب سعرا وطبعا وتداولا ، وقد وفرت للدار امكانيات مناسبة ودعم واسع من قبل الثورة لدعم الكتاب وزيادة الكميات المستوردة من الكتاب العربي والعلمي العالمي .

ثانيا : في مجال النشر :

ارتفعت معدلات النشر من الكتب غير المدرسية الى نسب تكاد تكون خيالية قياسا الى السنوات السابقة حيث تم طبع أكثر من الف وثمانمائة عنوان في هذا العام ، (٨٠٪) طبعت بمطابع الحكومة وبنسبة تزيد على النصف طبعت على نفقة الدولة أو مقابل تعضيد يزيد على (٦٠٪) من سعر الكتاب . وقد وزعت معظم هذه العناوين بواسطة الدار الوطنية ، كانت موضوعاتها تتوزع على العلمية والتراثية والادبية والسياسية والصناعة المكتبية والعلوم التطبيقية .. الخ، وكان أكثر من (٧٠) عنوانا لمؤلفين عرب من فلسطين ومصر وتونس والكويت واليمن وسوريا والسودان . وبالنسبة لمؤلفات الكتاب العرب طبعت على نفقة وزارة الاعلام ، وقد وضعت الخطة لتطوير الجهاز الطباعي العراقي حتى يستطيع الاضطلاع بالمسؤوليات الملقاة على عاتق العراق الطباعية وقد استحدثت مؤسسة آفاق للنشر والطباعة ووضعت المخططات للمجمع الطباعي التابع لوزارة الاعلام واصدرت قانون المطبوعات لحماية حقوق المؤلفين العراقيين والعرب من التزوير .

ثالثا : الكتب المدرسية ومجانية التعليم :

من أجل ترويج المعرفة والتقدم الحضاري والغاء التخلف وضعت مسالة مجانية التعليم موضع التنفيذ في العام الماضي وهذا العام ، حيث تم طبع ملايين الكتب والكراسات التي تحتاجها المراحل الدراسية من الابتدائية وحتى الجامعة ، قدمت الى الطلاب مجانا ، كما أعفي الطلبة من أي رسم خاص بالتعليم ووفرت كل الامكانيات لتقدم التعليم واشاعته ، كما تم تطبيق التعليم الاجباري للمرحلة الابتدائية في عدد من محافظات القطر للاطفال من (٧ الى ١٠) كمقدمة لمنع توسع الامية وللارتفاع بمستوى المتعلمين . وقد لاقت هذه الخطوات في مجال المعرفة والتعليم صدى كبيرا لدى المواطن العراقي والعربي المقيم في العراق أو القادم لغرض الدراسة فيه ..

رابعا : مكافحة الامية :

شنت الدولة حملة واسعة وجندت لهذه الغاية طاقات غير اعتيادية وامكانات مادية ومعنوية كبيرة وأجهزة ووضعت سلسلة من الاجراءات والعقوبات الادبية والمادية من أجل انجاح حملة محو الامية . وقد تم تعاضد جهود المؤسسات الشعبية واجهزة الدولة والشباب ومؤسسات التعليم في هذه المعركة وحظيت بدعم وبتوجيه أعلى سلطة في الدولة ومتابعتها بشكل يكاد يكون يوميا ومباشرا وقد تحققت نجاحات غير متوقعة رفعت نسبة التعليم الى حد يزيد عن (٤٠٪) بينما كانت النسبة لا تزيد على (٢٥٪) ولا تزال الوسائل الترفيهية والاجراءات سارية المفعول لمحاربة الامية وازالة اسباب التخلف . وكل هذا العمل مترابط ومتداخل ويصب في قناة واحدة هي الثقافة والمعرفة . وبالتالي الكتاب وايجاد المجالات الواسعة له لانه الكادر المتقدم والمقيم في البيت لتربية الرجل والمرأة والاطفال بأحدث مبتكرات المعرفة الانسانية والعلمية والاجتماعية والسياسية ، ولكونه الاطار الاكثر استقرارا ونضجا في اطر الثقافة العامة للمجتمع .

خامسا : في مجال ادب الاطفال :

ان رعاية الامومة والطفولة تعتبر المقدمة الاساسية لبناء مجتمع جديد وان من اولى مسلمات الرعاية توفير متطلبات التربية الحديثة للاطفال والقوانين التي تحمي الام وتعطيها المكتسبات العصرية وتقر بانسانيتها ، وقد قدمت الثورة في هذا المجال خطوات كبيرة حيث انشات مؤسسة لاصدار مجلات الاطفال وقصص وحكايات تتناسب ومستوياتهم وتعتمد للاتجاه القومي والانساني في تربيتهم ، كما اتاحت الفرصة للدار باستيراد الكتب التي تراها مناسبة من دور النشر العربية والتي تتوافق نظرتها للطفولة مع توجه الثورة العربية ومسيرتها في بناء الانسان الجديد التقدمي . ومع انها لا تزال في اول الطريق ، الا انها قطعت اشواطا لابد وانها ستكون الاساس لميلاد أدب اطفال قومي وتقدمي ، وملخصا لكل ذلك كانت وجهة نظر وزارة الاعلام الاستفادة من الكد الهائل الذي ينتجه الفكر الانساني في معظم انحاء المعمورة جهدا متصلا ومكملا بهدف الانتقال من الجهل الى المعرفة ،وفي هذا المجال اصبح أي جهد يبذل ، لابد وان يدخل في مجال نقل الانسان من الجهل النسبي الى المعرفة النسبية ، وبشكل تدريجي وبسلسلة متصلة الحلقات من الانتصارات اليومية على الجهل ومسبباته في كافة الميادين ، ولذلك نرى ان على ندوتنا ان تعمل على الاستفادة من الجهد الانساني في مجال المعرفة من جهة واحياء التراث من جهة أخرى، والعمل على وصل الحلقات بحركة فكرية جديدة ومعاصرة لخدمة حركة الثورة العربية .. وبناء الانسان العربي النموذج الذي نناضل من أجل ميلاده ليوحد هذه الامة ويقدم السعادة والعدالة لكل الكادحين .

علي حسين العبادي

مدير العلاقات والمتابعة في

الدار الوطنية للنشر والتوزيع والاعلان بالعراق